العتبة العباسية المقدسة

قلوب

بلا مأوى

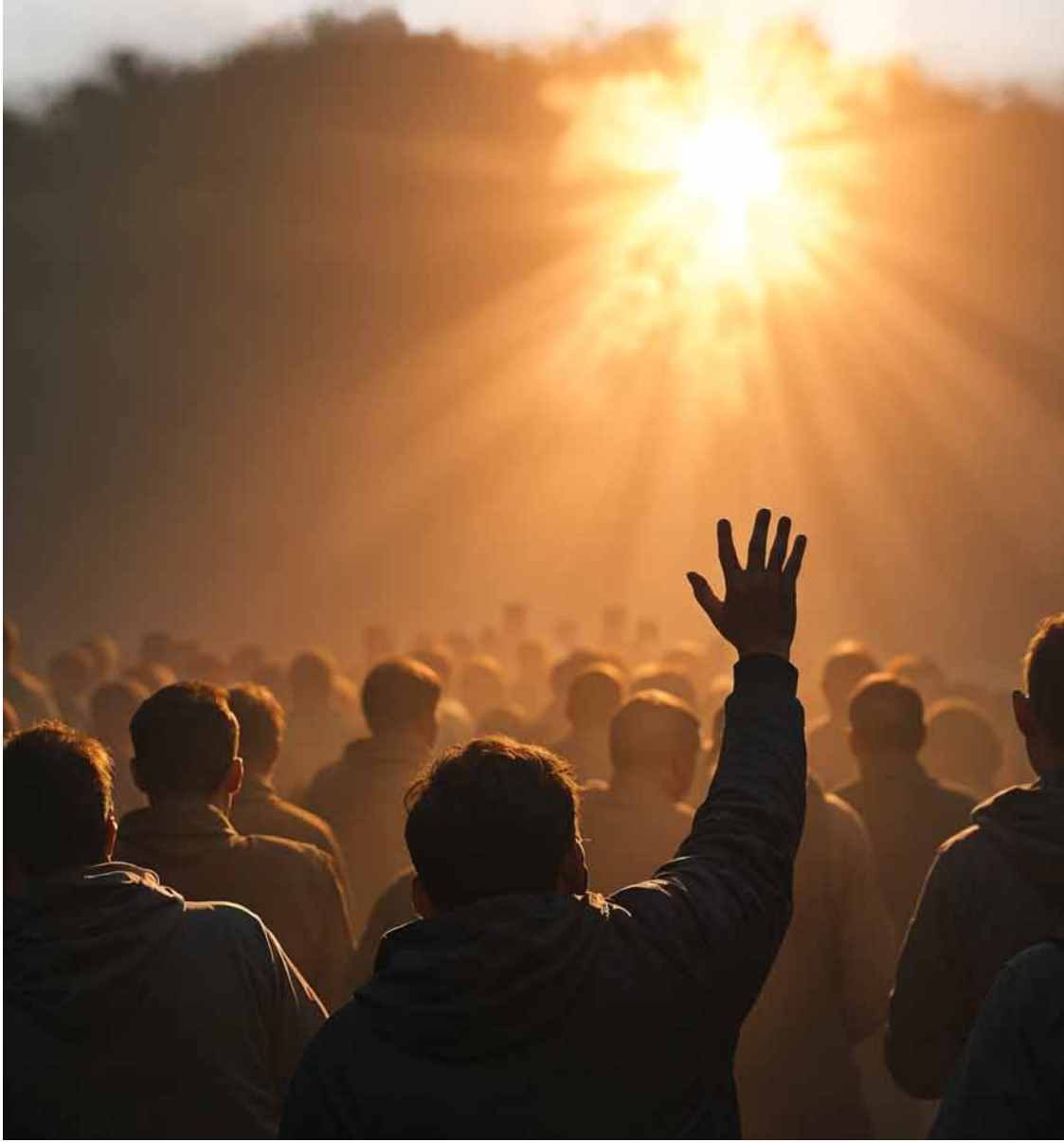

العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

تأليف: مصطفى عادل الحداد

التدقيق اللغوي: أحمد الحسناوي

التصميم والاخراج الطباعي:

نورالدين اللامي

الطباعة : دار الكفيل

الطبعة الأولى

٢٠٢٥م ـ ١٤٤٦هـ

www.alkafeel.net

هذه المجموعة القصصية

رحلة تـمزج

ما بين الإيـمان والإنسانية في أبهى صورها

ما بـين الألـم والأمـل

ما بـين العطاء والإيـثار.

مصطفى عادل الحداد

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٣٨

إهـــداء

إلى مَنْ كان ميزانَ العدلِ وبابَ الحكمة،
إلى مَنْ نقش في صفحاتِ الزمن أروع دروس الشجاعة والإخلاص والتقوى،
إلى مَنْ كان صوتَ الحقِّ في زمنِ الفتن، وسيفَ العدلِ في وجهِ الظلم،
إلى أمير المؤمنين، الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)،
الذي علمنا أنَّ القوة ليست في السلاح، بل في الحقِّ، وأنَّ الغنى ليس في المال، بل في القناعة، وأنَّ الشجاعة ليست في القتال، بل في الثبات على المبدأ،
إليك أُهدي هذه الصفحات، عَلّها تلامس القلوب، وتلهم العقول، وتبعث في الأرواح شوقاً
إلى قيم الحقِّ والإنسانية.

المقــدمــة

عندما تلقي حجرًا في النهر، فأنت لا تكتفي بإزعاج سكونه، بل تخلق دوائر من الاضطراب تمتد أبعد مما تظن، تلك التجاعيد التي ترتسم على سطحه ليست مجرد تموجات زائلة، بل ندوب تظل شاهدة على لحظة لم يكن النهر مستعدًا لاستقبالها،

أليس هذا ما يحدث في حياتنا أيضًا؟

قد تكون أيامنا هادئة كالماء الرقراق، صافية كمرآة تعكس السماء، حتى يأتي مَنْ يرمي حجارة ثقيلة في مجرى أعمارنا، فتتغير معالمنا، ونكتشف أنَّنا لم نعد كما كنا.

بعض الجراح تلتئم، وبعضها يظلُّ حيًّا ينبض داخلنا، يفرض وجوده على ملامحنا، على أصواتنا، على نظراتنا،

قد نحاول إنكارها، وقد ننجح أحيانًا في دفنها تحت ركام الوقت، لكنها تظلُّ في عمق أرواحنا، كنفق مظلم ينتظر طلوع القمر في ليلةٍ لم تكن بعيدة،

لكلِّ واحدٍ منا قصة يحملها في صدره، بعضها يُحكى، وبعضها يظل حبيس الصمت،

لكن ماذا عن القصص التي تصل إلينا دون أن تُقال؟

تلك التي نقرأها في أعين الآخرين، في حزنهم، في وحشة نظراتهم التي تفصح ما لا تنطقه الكلمات؟

في هذا الكتاب، ستجدون حكايات ليست مجرد سطور على ورق، بل أرواح تتحدث، وأصوات تناديكم من خلف الصفحات، حكاياتٍ لأشخاص ربما تعرفونهم، وربما لم تلتقوا بهم يومًا، لكنكم حتمًا ستشعرون بهم، وتلمسون وجعهم بين السطور.

سلامٌ عليكَ في كلِّ وقتٍ وحين

سلامٌ ينبعُ من القلب

سلامٌ ممتد إلى ما لا نهاية

ذكرُكَ حياة ...

قربُكَ نعيم ...

فمَن عرفكَ لم يعرف اليأس أبدًا،

ومَن سارَ في نورك ...

لن ترحل قدماهُ عن دربِ الإيمان،

فأنتَ الصراطُ المستقيم

وأنتَ لسانُ الحكمةِ لكلِّ العصور

تُضيء ظلام الأمم.

تمضي
مسرعةً
بلا توقف

لا دفءَ في هذا العالم القاسي، الموحش، عالمٌ يُعلّمنا منذُ الصغر أنَّ الدفءَ الحقيقي لا ينبعُ من الحجارة الباردة، ولا من الشمس الغاربة خلف الأفق، بل من قلوبٍ تحيا بيننا، تحملُ بين طياتها دفءَ الحنان، وأمانَ الحب، ومعنى الحياة،

في لحظاتِ الصمت التي يلفُّها الحزن، أتعجبُ من نفسي، مراراً وتكراراً، أعلنُ حرباً من الأسئلة التي يصعبُ أن تجدَ لها أجوبةً من الواقع الذي تعيشهُ،

أقولُ بصمتٍ: كيف لطفلٍ صغيرٍ مثلي أن يغوصَ في بحرِ هذه الكلمات الثقيلة؟

أن ينطقَ بالحزنِ بهذه الكيفية التي تجعلها تبدو كأنَّها لغةٌ يتقنها منذُ ولادته؟

وأسألُ ... أسألُ كثيراً وفي ذات الوقت أتذكرُ كلامَ أمي حين سألتها ذات مرة

أيطيبُ جرح القلب؟

فقالت لي بنبرةٍ ما زالت تعيشُ في ذاكرتي، نبرةٍ مكتومةِ البكاء: الفقدان يا بُنيي، جرحٌ يتركُ في القلب أثراً لا يُمحى، كندبةٍ تذكّرك دائماً بمصدرِ ألمك، إنَّه مرٌّ كطعمِ الحنظل، موجعٌ حدَّ الانكسار،

نعم، فلا يستطيعُ الإنسانُ أن يتمتعَ بسعادةٍ مطلقة وهو يعيشُ أسيراً لذكرياتٍ لا تفارقه، ولحنينٍ دائمٍ إلى شخصٍ غابَ عنه دون سابقِ إنذار،
غيابٌ لم يخطر في بالك يوماً، لكنه حدث، وتركك تُصارع واقعاً لم تكن مستعداً له.

إنَّه حنينٌ يرافقك كظلِّك، لا يغادرك أينما ذهبت،
يتسلَّلُ إلى قلبك في لحظاتِ الهدوء، يسرقُ منك راحةَ البال،
يأخذك في رحلةٍ عبر الزمن إلى ذكرياتٍ جميلةٍ لكنها مغلَّفة بطعمِ الحزن.

تلك الذكريات تُشبه الزهور الذابلة، تُشبهُ أشجار الخريف الشامخة لكنها يوماً بعد يوم تُفقدُ أوراقها الخضراء، تُفقدُ بريقها

ورونقها،
حتى تبدو شحيحة الظل، موحشةً، وحيدةً لا شيء يدثرها،
لا شيء يقيها من قسوة الزمان،

وأنتَ بكلِّ ما أُتيتَ من قوةٍ تقفُ أمامها عاجزاً، تُحاولُ أن تسترجعها،
أن تُعيدَ لها الحياة، لكنكَ تُدركُ في أعماقك أنَّ ما رحل لن يعود،

يكبرُ في داخلك يقينٌ مرير، يقينٌ يصفعك بحقيقةٍ أنَّ مَنْ يرحل
لا يعودُ أبداً، يقينٌ يحاولُ جاهداً بأن يقول لكَ:
انَّ الزمنَ عقاربُ ساعةٍ تمضي إلى الأمام فقط، وأنتَ لا تجدُ باباً غير
هذه الحقيقة المؤلمة، وهذا الواقع الذي لا مهرب منه،

لكن على الرغم من هذه الحقائق القاسية، أجدُ نفسي عاجزاً
عن النسيان، أعودُ دائماً إلى تلك الذكريات، كأنني أبحثُ فيها
عن عزاءٍ أو طمأنينة، أذكرُ كلَّ شيء وكأنَّه حدث بالأمس،
أتذكرُ كان هنا، كان جزءاً من عالمي، من طفولتي، من كلِّ
زاويةٍ في حياتي، كان حضوره ملاذاً، مصدرَ دفءٍ وأمان، لكن
رحيله تركني في مواجهةِ فراغٍ لا يُملأ،

أتذكرُ خطواته، صوته الذي كان يُعيد تشكيل عالمي كأنَّه نغمٌ أبدي لا ينقطع، أتذكر يديه، تلك اليدين اللتين كانتا تمسحان على رأسي بحنانٍ، كأنَّهما تزرعان الأمان في قلبي، كان أبي هو الحكايةُ التي أعيشُ تفاصيلها كلَّ يوم، كان هو النجمُ الذي يُضيء لي ليالي الظلام، وكان هو النهرُ الذي يُروي عطش المودة والرأفة والحنين .

لكن اليوم، بعد رحيله، أجدُ نفسي ضائعاً بين أمواج الفقد وذكريات الماضي،
كنتُ أتصورُ أنَّ الفقد هو مجردُ غياب الأشخاص، أو غياب الأشياء، أو غياب أمنية تحلمُ في تحقيقها،
لكن الآن أدركتُ أن الفقدَ يعني غياب المعنى، يعني فقدان التفاصيل الصغيرة التي كانت تُلوّن يومي، والتي كانت تمنحني شعوراً بالأمانِ دون أنَّ أدرك ذلك، هو فقدان الضحكة التي كانت تملأ البيت، وفقدان الكلمات التي كانت تُعيد لي توازني.

رحيله تركني في مواجهةِ هذا العالم القاسي، أُعيد ترتيب حياتي التي تهدمت برحيله، أبحث عن معنى جديد، عن طريقةٍ أستطيعُ بها مواجهة الفراغ الذي تركه في داخلي،

لكن في وسط هذا الألم، هناك نورٌ واحدٌ لا ينطفئ، هو أمي، أمي التي أصبحت ملاذي الوحيد، خيمتي التي أستظلُّ بها من قسوة الحياة،

هي التي تُعيد لي شيئاً من الأمان الذي فقدته برحيل أبي.

وجهها خصيبٌ كواحةٍ في صحراء حياتي،

لمساتُ يديها تمحو آلام وحدتي،

نظراتها تُسقي عطش الروح،

أُعانقها كالغريقِ الذي يبحثُ عن النجاة،

أُمسكُ بها وكأنَّها آخرُ حبلٍ يربطني بالحياة،

أمي ليست فقط حضناً دافئاً، بل أصبحت تعني لي كلَّ شيء في الحياة،

هي الشمسُ التي تُشرقُ في أيامي،

هي النهرُ الذي يُغذي روحي،

هي الجدارُ الذي أستند عليه في ضعفي عندما أُحاول أن أتخطى

حزني،
أجدها بجانبي، تمدُّ لي يدها، تُمسك بي، تُعيدني إلى الحياة،

وها أنا أعدُّ خُطاي، وأُحاول أن أجدَ في الذكرى ملجأً، أُحاولُ أن أُحوّلَ الحنينَ إلى قوة تدفعني للأمام، ومع أنَّ الليل ما زال طويلاً، والظلام حالك، لكنني أجدُ في عينيها بريقاً يُشبه ومضة البرق التي تُبدد ظلمة السماء،
أعدُّ خُطاي وأحملُ معي صبرَ الأيام، وعكازةَ الأملِ تدفعني خطوةً ... خطوة، أجهلُ إلى أين أمضي، لكنني أعلمُ أنَّ الحياة، مع قسوتها، لا تتوقف،
ربما يكون في الألم درسٌ، ربما يُعلّمنا الفقد شيئاً من الحكمة،
هذا ما تعلَّمتهُ من أمي فقد قالت لي ذات مرة:
الفقد يُخبرنا أنَّ الحياة ليست كما نعتقد، إنَّها قاسية، موحشة فقط، لكنها أيضاً مليئةٌ بالفرص، باللحظات التي تُعيد بناءنا، فنحنُ كالأشجار التي تُفقد أوراقها في الشتاء، لكنها تعودُ لتزهرَ في الربيع، نحن كالنهر الذي قد ينضب ماؤه، لكنه يُجدد نفسه معَ كلِّ موسم،
اليوم، وأنا أعيشُ هذه المشاعر المتضاربة، أجد نفسي أمام خيارين، أما أن أستسلم للألم، أو أن أجعله حافزاً يساعدني

لمزاولة العيش بصورة أفضل،

ومن الطبيعي أن تقع عيني على الخيار الثاني، فالإنسانُ بطبيعته محبٌّ للحياة، محبٌّ للراحة، محبٌّ للاستقرار والأمان، ولذلك فكلُّ واحدٍ منا يسعى بصورة دائمة ليخلقَ جوًّا يحملُ هُوية السعادة والرخاء،

لكن علينا أن نؤمنَ أنَّ الراحة المطلقة لا تتوفرُ في الحياة أبداً، كلُّ إنسانٍ لهُ حزنٌ وألمٌ بلونٍ مختلفٍ عن الآخر،

ولهذا علينا أن نُدركَ هذه الحكمة، وندركَ أنَّ الحياة، مع قسوتها، تستحقُ أن تُعاش، وأنَّ الذكريات ليست عبئاً، بل هي زادٌ يُعيننا على مواصلة الطريق،

وأنَّ مَنْ يرحل، يتركُ خلفه أثراً لا يمحوهُ الزمن، أثراً يُذكرنا دائماً بأننا لسنا وحدنا، وأنَّ الحبَّ الذي نحمله في قلوبنا سيظلُّ يُضيء حياتنا مهما اشتد الظلام،

ومهما كانت الأيام القادمة صعبة سأظلُّ أعدُّ خطاي أحمل في قلبي ذكريات أبي وفي روحي حبَّ أمي وفي عيني أملاً بأن الغد سيكون أفضل

هكذا هي الحياة تعلمنا لأنَّ الألم جزء منها والشقاء جزء منا والنمو أيضاً جزء منها فهي تمضي مسرعة بلا توقف.

سوف يعود قريباً

قد يكون من الطبيعي أن تتحملَ أعباء الحياة وحدك، أن تجرّ أذيال الشقاء من أجل البقاء وحدكَ،

لكن هل تساءلت يومًا عن الثمن الحقيقي الذي تدفعه؟

ليس بالضرورة أن يكون المال هو الشيء الذي تدفعهُ، بل قد تكون روحك هي التي تُنهك، وجسدك هو الذي يتحمّل أعباءً تفوق قدرته،

الحياةُ في طبيعتها لا تكون يسيرة وسهلة في قبضتك، وكلما تقدمت خطوة للأمام، يبدو الطريق أكثر وعورة، والظلام أكثر اسوداداً، والتعبُ أكثر حِدة،

تشعرُ وكأنَّك في سباقٍ مع الزمن، لكنَّك في الحقيقة تجري نحو أفقٍ مجهول، حيث السعادة تبتعدُ كلما ظننت أنَّك اقتربت منها،

تبدو كأنَّها فراشةٌ ملونةٌ تسحركَ في لحظات بجمالها وحين تمدُّ يدك لتُمسك بها تحلِّقُ بصمتٍ لا تدركه إلَّا بعد فوات الأوان،

تبدو كأنَّها قمرٌ تراهُ يلمعُ بوضوحٍ وتشعرُ أنَّه قريبٌ منكَ يسيرُ معكَ حين تتابع النظر إليه،

لكن في الواقع هو أبعد مما تتصور،

تبدو كأنَّها ضوءٌ خافتٌ في نهايةِ نفقٍ مظلمٍ لا نهاية له، وأنتَ تسيرُ في هذا الطريق الطويل، قد تسقط فجأة، ولا تجدُ مَن يمدُّ لكَ يد العون،

تصبحُ وحدكَ غارقًا في ظلامِ أفكارك المثقلة بالهموم، وحدك تُصارعُ موجات اليأس التي لا تكاد ترحم،

كم هو قاسٍ أن ترى من حولك يبذلون الغالي والنفيس من أجلك، وأنتَ تشعرُ بأنَّ كلَّ ما تفعله لن يكون كافيًا لردِّ جميلهم.

لن يكون كافياً ليُعبرَ عما يدورُ في داخلك من حبٍّ، من خوفٍ، من اهتمامٍ، من رعايةٍ لهم،

لن يكون كافياً ليحملَ معهم همَّ الحياة ومشقتها ومآسيها التي غيرت ملامحهم الجميلة،

أمي... هي أكثرُ من مجرد إنسان، هي حياةٌ كاملةٌ تتجسدُ في صورةِ امرأة عانت وثبتت،

ها هو وجهها الشاحب يحكي قصصًا من التعب والمعاناة،

عيناها الغائرتان تشهدان على الليالي الطوال التي قضتها وهي

تفكر فينا،

في وجهها تجدُ تجاعيد الزمن،

لكنها ليست تجاعيد شيخوخة عادية؛ بل إنَّها آثار صراع طويل مع الحياة،

جسدها النحيل لا يعكسُ قوتها الحقيقية، بل يُظهرُ حجم التضحيات التي قدمتها من أجلنا،

كانت ثيابها الرقيقة لا تقيها من حرِّ الصيف ولا برد الشتاء، لكنَّ هذا لم يكن همها، فهي تضعنا نحن فوق كل شيء،

تُفكرُ في جوعنا قبل جوعها،

تُفكرُ في دفئنا قبل دفئها،

تُنفق صحتها وسعادتها من أجلِ أن تزرعَ البسمةَ على وجوهنا،

كنا نلتفُّ حولها، أنا وإخوتي الصغار، بأعينٍ بريئة، لا تفهمُ الكثير من قسوة العالم، لكنَّها تشعرُ بها في صمتٍ حزين،

كانت كلماتها بمنزلة البلسم لجراحنا، كلماتٌ تنبضُ بالأمل، لكنها كانت تخرجُ من شفاهٍ مجروحة، من قلبٍ يحملُ عبء الدنيا بأكملها،

ابتسامتها، كانت نورًا يضيء عتمة أيامنا، على الرغم من إنَّها شاحبةٌ،

ابتسامةٌ لم تكن سعيدة أبداً ؛ فهي مشحونةٌ بالآلام، تخفي وراءها بحرًا من الأحزان والمخاوف،

ومع كلِّ ذلك فإنَّها كانت تبتسم لنطمئن،

لنشعرَ بالأمان،

لتزرعَ في قلبها الأمل بأن الغد يكون أجمل،

كانت مؤمنةً وواثقةً بأنَّ الله لن يتركها، وأنَّ الفرج قريب حتى لو بدا بعيدًا.

إنَّها مثالٌ للصبر الذي لا ينفد، للثبات الذي لا يتزعزع، امرأةٌ كسرت قيود الألم، وحملت راية الأمل، وواجهت الحياة بكل ما فيها من قسوة وعناء، لم تكن تطلب شيئًا لنفسها، كانت تعيش لتمنحنا نحن الحياة،

إنَّها المدرسةُ الأولى، واليدُ التي ربَّت وأطعمت، والقلبُ الذي يغفر، والروحُ التي تضحي بلا مقابل.

أمي ليست مجرد أم، بل هي بطلتي، ملهمتي، وكلُّ ما يجعلني

أؤمن أنَّ الحبَّ الحقيقي لا حدود له،
إنَّها المرأةُ التي تعلمني يومًا بعد يومٍ أنَّ القوة ليست في الجسد، بل في القلب،
وأنَّ التضحيةَ هي أسمى معاني الإنسانية، عن طريقها أدركت أنَّ الحياة قد تكون قاسية، لكنَّها تصبحُ أقلَّ قسوةً حينما تجدُ شخصًا يحبُّك بهذا العمق،

وذات ليلةٍ عصيبة وأنا جالسٌ إلى جانبِ إخوتي الصغار وهم يبكون جوعاً،
و أمي تجلسُ بقربنا متأملةً أن تجدَ بصيص نورٍ يكشفُ تلك الغمة عنا، وحينما كنا على هذه الحالة فإذا برجلٍ أقبل نحونا ويسألُ عن أحوالنا،

لم يكن أمراً طبيعياً أبداً بالنسبةِ لي، فمَنْ يسأل عنكَ وأنتَ تُحارب من أجل البقاء وسط صخب الحياة؟

لكن شاءت السماء أن تُمطرَ في ذلك اليوم وتهبَ لنا رزقاً وفيراً، وشاءَ بابُ الخيرِ أن يُفتحَ لنا ويُفرحَ قلوبنا المتعبة،

وبعد لحظاتٍ قالت لهُ أمي:
إنَّ زوجي كان يقاتلُ في صفوف المسلمين وأستُشهد، وترك لي هؤلاء الأيتام، منذُ ذلك الوقت وأنا أتكفلُ برعايتهم، ولكن اليوم لم أجد شيئًا أُطعمهم، فهم يبكون من شدة الجوع،

بانت ملامحُ الحزن على ذلك الوجه الملائكي وأطلقَ عبارات من المواساة لكنه لم يكتف بذلك ووعدنا بأنَّه سيعودُ قريباً،

مضى مسرعاً، وبقينا مقيدين بسلاسل الانتظار، قد يكون مؤلماً وصعباً لكن في بعض الأحيان لا سبيل لديك غيره،
تبقى منتظراً، متسلحاً بالأمل والصّبر علَّهُ الباب الذي سيكون سبباً في نجاتكَ، وتبقى عيونك تتفحصُ الطريق، وتتفحص كلَّ خطوةٍ تمرُّ بك، بشوقٍ، بلهفةٍ لا حدود لها،

وبعد مرور وقتٍ قصير وإذا به يأتي من بعيد حاملاً جراباً فيها الطَّحين والسَّمن والتَّمر، وما إن صار بيننا دبَّ الفرح في ذلك القلب المتعب،

ثُمَّ أوقدَ النَّار في التَّنور وقَرَّب خدهُ من النَّار وقال:
يا علي ذُق .. كيف يبيتُ الأيتامُ جياعاً... ذق يا علي،

ثُمَّ أخذت أمي تخبزُ الخبزَ، وجاء نحونا يلاعبنا ويحملنا على ظهره والبسمات مطبوعة على شفاهنا، وحين أكملت أمي إعداد الطَّعام، جلسَ يطعمنا بيديه وهو يردد قائلاً:
(كُلوا وسَلَوا اللهَ أن يغفرَ لعلي)
ثُمَّ مضى بعيداً لكن كنتُ على يقين بأنَّه سوف يعودُ قريباً.

لا تتركني وحيداً

في كثيرٍ من الأحيان، الحياة ليست وحدها التي تحملُ إلينا الألم، بل هناك مَن يساعدها على تعميقِ هذا الجرح وزيادة وطأته، دون شفقةٍ أو رحمة،

وها هي الحياة ما زالت تغرز أظفارها في أعماقِ جسدي الهزيل، كأنَّها تحاولُ انتزاع أنفاسي الأخيرة، ليتبدد الفرحُ وتتلاشى البهجةُ من حياتي،

كأنَّ الربيع، بكلِّ جماله ورقته، قد اقتلع جذوره من فصول أيامي، وكأنَّ اللون الأصفر، لون الذبول واليأس، صار عنوان حياتي،
كأنَّني عدوها اللدود، ولا ترغبُ ولا تقبلُ أبداً بأن أكون صديقًا أو شريكًا أو أي شيء بالنسبة لها،

أنا طفلٌ، لكن ملامحي الشاحبة تخبرك بحكايةٍ أخرى، تُخبرك بأنَّ لي قلباً صغيراً مُثقَلاً بالألم، وأنَّ عمري ليس وحدهُ الذي يتقدم، بل الحزن أيضًا يكبرُ معي ويحتلُ كلَّ زاوية في قلبي،

كلُّ يومٍ يمرُّ يحملُ معهُ قسطاً آخراً من الهم والجوع والحرمان، حتى أصبحتُ أبدو جسداً منهكاً، متآكلاً من ثقلِ الألم الذي أحمله،

قسوةُ العالمِ صارت جزءًا من يومياتي، وجزءًا من التجربةِ التي يُقال إنَّها تصقلنا وتجعلنا أقوى، لكن أي قوة تلك التي تخرجُ من أعماقِ الظلام؟

أحقًّا هم يتحدثون عن السعادة؟

كأنَّها شيء في متناول الجميع، يقولون إنَّ السعادة في العطاء والمشاركة، وإنَّ الفرحة تكمن في تقديم الخير للآخرين،

لكني كنتُ أعتقد هذه الكلمات المثالية لا تتجاوز حدَّ الخيال، وكان في بالي أنَّها كذبة كبرى تُقالُ لتجعلَ الحقيقة المُرَّة تبدو أكثر جمالاً ورونقاً فقط،

فلا أحد يشاركك حزنك، ولا أحد يتحملُ عنك ألمك، الجوع والحرمان معركتك وحدك، فلا تنتظر يدًا تمتد لتنهي

حكاية العذاب،

ولا قلبًا يطفئ لهيب الألم المستعر في داخلك،
فلا يشعرُ بلسعِ النار إلَّا حامل الجمر،
كنتُ أظنُّ أنَّ الطريقَ هو الأنيس الوحيد لي، هو الذي يسمعُ أنيني ويحتضنني بين جدرانه، وهو الذي يشاركني في رسائل الدموع التي أبعثها إلى السماء،

لكن، ذلك اليوم كان مختلفاً تماماً في صورته ومعالمه، أما أنا كنتُ كما أنا جالساً في ركنٍ منعزلٍ وسطَ الطريق والدموع تنهمرُ كالمطر في عزِّ الشتاء،

هي لا تُسقي شقوق وجهي، ولا تداوي جراحي، لكنَّها كانت نافذتي الوحيدة التي تساعدني على تفريغ ما يتراكمُ في داخلي من الألم والوجع،
وبينما أنا غارق في حزني، فإذا بيدٍ بيضاء يشعُ النورُ منها كالقمر،
شفيفةٍ كقطرةِ ماءٍ تهبُ الحياة بلا مقابل، تمسحُ برقّةٍ على رأسي،

نظرتُ لأجدَ وجهًا ملائكيًا ينظرُ إليَّ بعطفٍ لا يمكن وصفه،

ضمّني ذلكَ الرجل إلى صدرهِ وأخذَ يمسحُ دموعي ولم أحسَّ برقةِ يدٍ ولا برائحةِ عطفٍ كهذه من قبل، ثُمَّ سألني عن سبب بكائي

فقلتُ لهُ: جئتُ إلى هنا لألعبَ مع هؤلاء الصبيان ولكنَّهم طردوني لأنني يتيم الأب، وقالوا لي:

نحنُ لا نلعبُ مع مَنْ ليس لهُ أبٌ،

كلماتٌ لها وقعٌ ثقيل، أدخلت إلى قلبه الحزن وصار يبكي مثلما أبكي، لأولِ مرةٍ أجد مَنْ يشاركني حزني بهذا الكمِّ الهائل من مشاعرِ الرحمةِ والحبِّ والمودة،

ثُمَّ ضمَّني إلى صدره مرَّة أخرى وأعطاني بعض النقود وقال لي: اذهب والعب مع الصبيان فإن قالوا لك أنتَ ليس لكَ أبٌ، فقل لهم :

إنَّ أبي هو عليُّ بن أبي طالب،

في لحظةٍ انطفأ الحزنُ وزالَ الهمُّ وارتسمت البسماتُ فوق الشفاه الذابلات

فقلت: هنا فردوسُ اليتامى السعيد،

هنا الربيعُ الخصيبُ لجفافِ الاخضرار،

لن يحتبسَ البوحُ دهراً،

هنا سيركعُ الصبرُ متضرعاً ولتتبعثرَ حروفُ النداءِ في المنهلِ الإلهي

كي يشربَ فمُها صوتاً رقيق الصدى، كي يفهمَ عقلُها بلاغةَ الغنى،

كيف يتزحزحُ حجرُ القهرِ عن أرضِ جسدي ؟

وكيف تنبتُ براعمُ الشذا في الصبر لو لم تستلمْ صحائفَ الماءِ والعشبِ والسرور من مأواكَ النعيم؟

لا تَتركني وحيداً في محطةِ الانتظار كنجمةٍ سوداء في قاعِ الظلام،

لا يُلامسُ القمرُ جسدَها ولا يتساقطُ الضياءُ من مساماتِها،

فلا تَتركَني وحيداً !

قلتُها اجتاحني الصمتُ أمتلأ القلبُ أزهاراً بيضاء، تَراقصتْ

حماماتُ السلام،

تدلَّى القمرُ بيتاً لي فقلتُ:

يا أيُّها اليتامى ... يا أيُّها اليتامى، يا أصحابَ الجراح،

نحن أحياء ... نحن أحياء،

ذلك اليوم كان نقطة تحول، لم يعد الحزن سيد حياتي، ولم تعد الظلمة تسيطرُ على قلبي، كنتُ أظنُّ أنَّ العالمَ مظلمٌ بالكامل تماماً، حتى ظهر ذلك النور وأضاءَ لي طريقًا جديدًا،

ومنذُ ذلك الحين، بدأتُ أرى الحياة بعيونٍ مختلفة، لم يعد الصمتُ قيدًا يكبلني، ولم يعد الحزن جدارًا يحبسني،

بدأت أُؤمنُ بأنَّنا نحن اليتامى أقوى مما نتصور، وأنَّنا على الرغم من الجراح أحياء، نمتلكُ القدرةَ على العطاءِ والابتسام حتى في أصعبِ الظروف،

ومنذُ تلك اللحظة، شعرتُ بأنَّ تلك اليد التي امتدت نحوي كانت أشبه بمنارةٍ تنيرُ دربَ السفن التائهة في ظلام البحار، فلم يعد الحزنُ رفيقي الأبدي، ولم أعد أحملُ وجعًا أعمق من بحار العالم،

ولم أعد أشعرُ بتلك الأشياء التي كانت تحيطُ بي وتشعرني بالخسران دائماً،

ولم أعد أهتمُ إلى تلك الوجوه التي تنظر إليَّ بنظرةٍ بائسة، بنظرةٍ تحاولُ إبقائي عالقًا في دوامة الشعور بالحرمان،
ذلك الرجل لم يكن مجردَ شخصٍ مرّ بي مصادفة، بل كان رسالةً من السماء، كانت ملامحهُ تحملُ براءةَ الطفولة وحكمةَ الأنبياء في آنٍ واحد،
حين نظر إليّ، شعرتُ أنَّني أراه للمرةِ الأولى، كان مختلفًا؛
في عينيه رأيتُ رحمةً، وفي صوته سَمِعتُ وعدًا بأنَّ الحياة قد تكون أقلَّ قسوة مما تبدو عليه الآن،
لكن القصة لم تنتهِ هنا، بعد أن غادر بعيداً، وجدتُ نفسي أُفكرُ فيه بصورة مختلفة، تساءلت: لماذا بكى من أجلي؟
لماذا ضمّني وكأنَّهُ يعرفني منذُ زمن؟
ربما لأنه رأى فيَّ شيئًا يُذكرهُ بنفسه، أو ربما لأنَّه كان يفهمُ معنى اليتيم أكثر مما كنت أتصور،
في تلك اللحظة، أدركتُ أنَّ الحنانَ الذي غرسه في قلبي لم يكن مصادفة، بل كان بدايةً لرحلةٍ جديدة.

لوددتُ أنيِ كنتُ يتيماً

عندما يُهديك شخصٌ ما شيئاً، فإنَّه يغرسُ في داخلك شعوراً بالفرح والسعادة، لأن العطاء يحمل في طياته قوة قادرة على تغيير النفوس وملء الأرواح بالبهجة،
لكن أحياناً، ليس كلُّ ما نحتاجه هو العطاء المادي، فقد يكون القلب أكثر تعطشاً لمن يمنحه الحب والمودة والأمان،

هذا النوع من العطاء هو الأسمى والأصعب، لأنَّه لا يأتي إلَّا من نفوسٍ مؤمنةٍ وعقيدةٍ راسخة بالله تعالى، ومن أشخاص زهدوا في ملذات الحياة وتزينوا بالتقوى والورع،
فالعطاء الحقيقي لا يُقاس بما تملكه، بل بما تقدمه دون انتظار مقابل، ولا يتحدد بحجمٍ معين، بل بصدق النية وروح الإيثار التي تحملها،
إنَّ الحاكمَ العادلَ والشجاع الذي يختارُ التواضعَ طريقاً، ويمنحُ مَن حولهُ الحبَّ والرعاية، هو نموذجٌ نادرٌ لا يُنسى،

وكيف يكون النسيانُ ممكناً ونحن الأيتام مَنْ ينعمُ برعايته؟

لم يكن التزامه بنا عابراً أو شكلياً، بل كان قضيةً مقدسةً تتجلى في وصيتهِ الخالدة:

(الله الله في الأيتام، فلا تُغبَّوا أفواههم، ولا يُضيّعوا بحضرتكم)،

كانت كلماته هذه تُشعلُ في القلب يقيناً بأنَّنا لسنا وحدنا في هذا العالم،

جلستُ بجواره، أتأملُ ملامحهُ التي تنبضُ بالحبِّ والحنان، همستُ لهُ قائلاً:

بقربك عادَ قلبي لينبضَ بالحياةِ بعد أن أنهكته الليالي المليئة بالسهر والحزن والبكاء، كنتُ غارقاً في شقاءٍ لا ينتهي، لكن رؤيتك تمحو كلَّ الآلام،

وعطاءَك ليس مجرد يدٍ تمتد لتُطعمَ أو تمنح، بل هو نهرٌ يروي عطش الروح،

وجسرٌ يعبرُ بنا إلى برِّ الأمل،

ظننتُ أنَّ هذه اللحظة الجميلة هي فقط لي ولإخوتي، لكن سرعان ما أدركتُ أنَّني لستُ الوحيد، حولنا كان جمعٌ من الأطفال اليتامى الذين فقدوا آباءهم في ساحات الحرب، كلُّهم يشاركونني نفس النظرة الممتلئة بالامتنان،

كان وجهه مشرقاً، ينثرُ البهجة والسرور في قلوبنا، وقلبه كالمأوى الدافئ الذي احتضننا جميعاً، كيف لا ؟
وهو الأب الذي يتمنى الجميعُ أن يحظوا بمثله،

بين كلماته وأفعاله كان يتجلَّى حبٌ نقي، وكأنَّ عطفه يتحدى قسوة العالم، حتى حين قدَّم لنا الطعام، كان يقدمُ لنا التين والعسل بيديه الكريمتين، وكأنَّما يقول:
أنتم أبنائي، ولن أدعكم تشعرون بالحرمان أبدًا،

لاحظ أحدُ أصحابه ذلك فنظر إليه قائلاً:
لوددتُ أني كنتُ يتيماً،
لأنَّه رأى في هذا المشهد ما يتجاوز حدود الكرم إلى العطفِ الذي يندر وجوده،
لم يكن ذلك اليوم يوماً عادياً، بل كان لحظةً فارقة، محفورة في القلب، لقد كان مثالاً حيًّا لالإنسانية التي تبني وتُرشد، التي تُعلمنا أنَّ العطاءَ ليس مجرد فعل، بل أسلوب حياة، معهُ تعلمنا أن الفقدَ لا يعني النهاية، وأنَّ الحبَّ قادرٌ على ملء الفراغات التي يخلِّفها الحزن

ومنذُ ذلك اليوم، لم تعد أرواحنا تعرفُ الحرمان، ولم تعد أحزاننا تهددنا بالجوعِ أو الألم، صار الفرح رفيقنا وغدت البسماتُ لا تفارق وجوهنا،

الفرح هو تلك الحالةُ العجيبةُ التي تمنحُ الروح قوةً وطاقةً لتستمر، إنَّهُ ليس شعوراً عابراً، بل هو تجربةٌ عميقةٌ تُعيد تشكيلنا من الداخل، تجعلنا نرى العالم بعيونٍ جديدة، عندما تغمرنا السعادة، يصبحُ كلُّ شيء من حولنا ينبضُ بالحياة،

وقد يأتينا الفرح في أبسطِ اللحظات، في ضحكةٍ عفوية، أو لقاءٍ غير متوقع، أو حتى في كلماتِ شخصٍ يحبنا بصدق، لكن مهما طالت ساعاتُ الفرح، نشعرُ دائماً بأنَّها تمرُّ سريعاً، خاصةً إذا كنا برفقةِ مَنْ نُحب، وعندما حان وقت الوداع، لم تسعفنا الكلماتُ للتعبيرِ عن حجمِ حبِّنا وامتناننا، كلُّ ما استطعنا فعله هو أن نرتمي في أحضانه، نعانقه بشدة، وكأنَّنا نقول له:
ابقَ دائماً لنا، فأنت الأمانُ الذي لا نريد أن نفقده أبدًا،

خرجنا ونحنُ نحملُ في صدورنا دعاءً بأن يديم الله تعالى هذا النور، وأن يبقى هذا العطاء والحنان جزءاً من حياتنا، لقد ذاقت أفواهنا حلاوة العسل، وذاقت قلوبنا طعم الفرح،

خرجنا من عنده ونحن نحمل في قلوبنا عبق تلك اللحظات التي لن تُنسى،
لحظاتٌ تركت بصمةً أبديةً في أرواحنا، وكأنَّنا وُلِدنا من جديد،
تلك النظرات الحانية، والابتسامة التي تملأ وجهه، علَّمتنا أنَّ الحياةَ ليست عادلةً دائماً،

لكنَّها تصبحُ أجملُ عندما يكونُ فيها أشخاص مثل هذا الحاكم العادل، فالسلطة عنده تعني المسؤولية تجاه كلِّ ضعيف وكلِّ محتاج،

وبينما كانت أيامنا تمضي، كنا نحمل تلك اللحظة كجوهرة ثمينة، نستعيدها في لحظات اليأس، فنستمد منها القوة،

لم يكن ذلك الرجل مجرد شخصية عابرة في حياتنا، بل كان رمزاً للإنسانية التي تجسدُ الرحمة والعدل،

وفي كلِّ مرةٍ كنا نجتمعُ فيها، نحن الأيتام الذين جمعهم ذلك القلب الكبير، كنا نستعيد ذكرياتنا معه، نحكي عنها وكأنَّها أسطورة، لكنها لم تكن مجرد قصة تُروى، بل كانت حياةً عشناها بكلِّ تفاصيلها،

كنا نحلم أن نعودَ إليه، أن نجلسَ تحت ظِلِّه من جديد، أن نستمعَ إلى حديثه الذي كان ألين من النسيم، وأن نرى في عينيه ذلك النور الذي كان يضيء عتمة أرواحنا،

صار كلُّ واحدٍ منا يحملُ في داخله بذرةً من كرمه، ينشرها في محيطه، ليكونَ مصدر فرح لمن يحتاج،

وأدركنا أنَّ العطاءَ لا يُقاس بحجمه، بل بصدقه، وأنَّ الحبَّ الحقيقي هو الذي يُمنحُ بلا انتظار مقابل،

لقد كانت تلك اللحظة درساً خالداً في حياتنا،

درساً علّمنا أنَّ الأيتام ليسوا أعداداً، بل أرواحاً تستحقُ الرعاية والحنان،

علّمنا أنَّ الحياة قد تحرمنا أحياناً، لكنَّها تُعوضنا بأشخاصٍ

يمنحوننا أكثر مما فقدنا،

علّمنا أنَّ العطاء هو ما يجعل للحياة معنى، وأنَّ الحبَّ هو أعظم صور العطاء،

ومهما مرت الأيام، سيبقى ذلك الرجل الحنون، الحاكم العادل، رمزاً للأبوة الحقيقية،

سيبقى في قلوبنا نبضاً يُذكرنا بأننا لم نكن وحدنا، وبأنَّ الحياة، مهما قست علينا، يمكن أن تكون أجمل عندما نجد مَنْ يزرعُ فيها الرحمة والكرم،

وفي داخلِ كلِّ واحدٍ منا، كان هناك عهدٌ صامت: أن نسيرَ على خطاه، وأن نكونَ كما أرادَ لنا، أشخاصاً يحملون الحبَّ في قلوبهم، وينثرون الخيرَ في دروب الآخرين.

أُملٌ بطعمَ الحزن

لا يمكن للحياة أن تستمرَ دون أحلام وأمنيات، فكلُّ واحدٍ منا يحلمُ أن يُحقق أمنية معينة تُساعدهُ على مزاولة الحياة بصورة أفضل وأكثر ارتياحاً،

فالأمنيات هي النورُ الذي يضيء لنا عتمةَ الطريق، وهي تلك الشعلةُ التي تشتعلُ في أعماقِ أرواحنا، فتدفعنا للمضي قُدماً نحو حياة جديدة تكسوها السعادة، مهما اشتدت علينا الظروف، ومهما اشتدت قسوة الأيام،

نحنُ بحاجةٍ ملحةٍ إليها كحاجتنا إلى الهواء، لأنَّها تُمثلُ لنا الحلم، الأمل، والشعور أنَّ القادمَ يحملُ في طياتهِ شيئًا أفضل، شيئًا مختلفًا عن هذا الواقع الذي نحياه،

الأمنياتُ تنبعُ من أعمقِ أعماقِ القلب والعقل معًا، تختلطُ فيها المشاعرُ بالتفكير، والرغباتُ بالآمال، فتُولدُ فكرةً جميلةً نتمسكُ بها بكلِّ ما أوتينا من قوة، ننتظرها وكأنَّها رسالةً من السماء،

ولكن، مع كلِّ ذلك، ليست كلُّ الأمنيات تتحقق، فبعضها يبقى عالقًا بين الحلم والواقع، بين ما نريده وما تفرضه علينا الحياة من قيود وظروف،

ومع ذلك، تبقى هذه الأمنيات جزءًا من حياتنا، جزءًا لا نستطيع التخلي عنه أو نسيانه، إنَّها تشكل أركانًا خفيةً في كياننا، يحفزنا دوماً لمواصلة الطريق حتى إن كانت مجرد خيالات قد لا تتحقق أبدًا،

الحياة، بطبيعتها، لا ترحم، إنَّها تختارُ لنا أحيانًا ما لا نرغب فيه، ما لم نحلم به أو نخطط له، تختار لنا الظلام بدلًا من النور، والفراق بدلًا من اللقاء، والألم بدلًا من السعادة،
وقد يصلُ بنا الحال بأن نجد أنفسنا محاصرين بمساراتٍ لم نخترها، بطرقٍ مليئةٍ بالصعاب والتحديات التي تُثقل قلوبنا، لكنها في النهاية جزءٌ من واقعنا، جزءٌ من تلك الرحلة التي علينا أن نكملها على الرغم من الألم،

ذات يوم، وجدتُ نفسي في مواجهةِ الحياة بوجهها القاسي، تحتَ سقفٍ متصدعٍ يهددنا بالانهيار، وفي ليلة حالكة الظلام، أقبلَ علينا فجرٌ مشؤوم، فجرٌ بدا كأنَّ مرارة الحياة وقسوتها اجتمعت فيه،

فجرٌ متشحٌ بالسواد، يحملُ في ملامحهِ نظرة شيطانية غاضبة، وكأنَّ هدفه الوحيد هو أن يُحطمَ كلَّ ما بُني في أرواحنا من أحلام وأمنيات،

رأيته يقتحمُ حياتنا كالعاصفة، يدمرُ كلَّ شيء في طريقه، حتى وصل إلى قلوبنا، فأشعلَ فيها نيران الحزن واليأس،

وها هي الحياة اختارت لنا اليتم مرة أخرى، بسيفِ الغدر والخيانة والحقد والكفر، ضُرب رأسهُ الشريف في محراب الصلاة، ضربةً ذُبحت معها سعادتنا وأحلامنا وهدمت سقف الأمان على رؤوسنا،

هرعتُ مسرعاً وخلفي جمع من الأطفال اليتامى نمضي مسرعين والدموع تسيل زخَّات ... زخَّات ونحن نهتف بصوت شجي:

أبانا علي ... أبانا علي،

يا لهُ من حزنٍ لم يكن عابرًا، جاء كسهمٍ طبع الألم على قلوبنا، سهمٌ توسم صدورنا يصعب انتزاعه، يصعب رحيلهُ، أعاد الحزن فينا،

وبقي السؤال العالق في عقلي، أمات أبونا حقاً أم ما زال على قيد الحياة ؟

كنتُ أتمنى أن يخبرني أحدٌ بأنَّها ضربة ليس لها أثرٌ عميقٌ لكن رأيتُ بعيني،

كيف نزف الجرح؟

كيف كان الألم ينهشُ جسده؟

كانت ضربة قاسية ومؤلمة، وبقيتُ واقفاً هناك، أُصارعُ خوفي ودموعي، أتمسكُ بخيطٍ رفيعٍ من الأمل، كنتُ أقولُ في داخلي:

لا بدَّ من أن يعودَ أبي إلينا، لابدَّ من أن يشفيه الله تعالى، فالحياةُ من دونهِ لا تُطاق،

يا لهُ من فجرٍ لم يكن عاديًا، لقد كان كالوحش الذي افترسَ كلَّ شيء جميل في حياتنا، ونحنُ نفرُّ منه فرار طريدة يلاحقها ناب أبيض بطباع سوداء،

لقد اقتحمَ بيتنا وهدَّمَ جدران الأمان من حولنا، وتركنا نواجه العاصفة وحدنا،

وفي اليوم التالي ذهبتُ حاملاً معي قدحاً من اللبن وكان معي أيضاً جمعٌ من اليتامى وهم يصطفون عند بابه وأنا أقول بصوتٍ متقطع الأنفاس:

أرسلتم لنا اللبن خذوا اللبن وأرجعوا أبانا عليًّا،

جئنا إليكَ بعيونٍ تقطرُ دماً وبقلبٍ يتقطعُ حزناً ونتوسلُ أن لا ترحلَ عنا،

أن لا يسرقك الموت منا، فها هو صوتُكَ ما زال يرنُّ صداه في أعماقنا،

وها هو عطفكَ، كرمكَ، يهدينا رمقاً آخر للعيش بسلام،

وقفتُ عند بابه وزرعتُ في قلبي بذرة الانتظار أسقيها من دمي ودمعي،

علَّ ذلك العطاء يعود،

علَّ بشارة النجاة تأتي ويقولون لي: الحمد لله، لقد أصبحَ بحالة جيدة،

وقفتُ أترقبُ ... أترقبُ وأنا أسألُ نفسي:

هل من آتٍ ينتشل الروح من الضياع ؟

هل من آتٍ ينتشل الروح من الهلاك ؟

هل من آتٍ يُرمّمُ حطام القلب؟

بقيتُ أنتظرُ وأترقبُ على مدِّ البصر بشارة تريح الفؤاد، ومع كلِّ لحظةٍ تمضي تزدادُ حرقةُ الغياب وتسعى ملامحُ الأمل إلى التلاشي بعيداً عن مدينتنا،

صحيحٌ كان الأملُ يتآكلُ ببطء، ولكنني لم أفقده تمامًا، كنتُ أعلمُ أنَّ الحياة قد تكون قاسية، ولكنها لا تخلو من المفاجآت، لا تخلو من تقلبات الأحوال، ولهذا كنتُ أدفعُ نفسي إلى الثبات، إلى التفاؤل وأنا أُحاولُ أن أُضمدَ جراحي بنفسي وأقول:

ربما ستحدثُ معجزة،

ربما سيعودُ أبي إلينا كما كان،

ومع ذلك، كانت تنتابي نوبة حزن شديدة ما بين الحين والآخر ترجعني إلى مرحلة اليأس وغياب الأمل في النجاة،

الحياةُ أحيانًا تضعنا أمام اختبارات قاسية، تُعلِّمنا معنى الألم والصبر، تُجبرنا على مواجهة خساراتنا، وتدفعنا للبحث عن القوةِ في أعماقنا،

ومع ذلك، يبقى الأمل هو الشيء الوحيد الذي يمنحنا القدرة على الاستمرار، حتى في أصعب اللحظات، فما زلت أُؤمنُ أنَّ الغدَ قد يحملُ معهُ نورًا جديدًا، وفرحًا يمحو ذلك الألم والحزن القاسي.

غربة روح

من الصعب جدًا أن يصبحَ الإنسانُ أسيرًا للانتظار، فهو شعورٌ يقيدُ الروح ويسلبُ الحياة نكهتها؛ إذ يجد الإنسانُ نفسهُ عالقًا بين أملٍ غامضٍ ومصيرٍ مجهول، وكل شيء في حياته يصبحُ مؤجلًا، موصولًا بحبالٍ واهيةٍ من الرجاء، إما أن يعيشَ في فرحٍ مؤقت أو حزن دائم،

إنَّه قلقٌ لا يعرفُ حدًا، توترٌ يأكلُ من القلب ويستهلك الطاقة حتى يتركك فارغًا، مجردًا من الصبر،

ويبدو الزمن وكأنَّه توقف، وكأنَّ عقارب الساعة ترفض المضي قدمًا، فيعيشُ المرء شعورًا مميتًا بأنَّ كلَّ شيء عالق وغير قابل للتغيير،

مرَّ يومان وأنا أعيشُ هذا الشعور المؤلم، ألمٌ يثقلني، يقيدني، يحاصرني من كلِّ الجهات ومع ذلك،

تمنيت لو أنَّ الزمن يتوقف هنا،

تمنيت ألا يأتي اليوم الثالث، اليوم الذي خطف مني كلَّ شيء جميل،

اليوم الذي حطم أحلامي وجعلني أسيرًا للألم والوجع،

ذلك اليوم لم يكن مجرد يوم عادي، بل كان جرحًا غائرًا،

صفحةً سوداء في كتاب حياتي،

يومًا اغتيلت فيه السعادة من حياتي وامتلأت أيامي بالمرارة واليأس،

في ذلك اليوم المشؤوم، جاء الخبر الذي هدم أركان حياتي وزعزع أمان روحي، ذلك الخبر الذي أعادني إلى أرض الحرمان واليتم، وكأنَّ روحي خرجت مني وعادت إلى عالمٍ بلا دفء ولا أمان،

ذلك اليوم الذي تهدمت فيه والله أركان الهدى، وانطمست والله نجوم السماء، وأعلام التقى، وانفصمت والله العروة الوثقى

أبي علي، هل رحلت حقًّا ؟

كيف يمكن لي أن أصدق أنك لم تعد هنا ؟

برحيلك لم نكن على القيد الفرح، برحيلك سينهشُ الجوعُ أجسادنا، برحيلك نُصبحُ جسداً بلا روح،

رحلتَ وأنا لم أرتوِ من حنانك، لم أكن قد شبعْتُ من رؤيتك، من دفء كلماتك وحكمتك، كم تمنيتُ أن أكبر بجانبك،

أن تكون أنت مَنْ يرشدني في دروب الحياة،

ولكنك رحلت فجأة، على عجل، وتركتني صغيرًا ضعيفًا،

غارقًا في حيرةٍ وحرمانٍ لا نهاية لهما،

أبي علي، هل رحلت حقًّا ؟

رحلت وتركتني أتخبط في ظلام الوحدة، تركتني أبحث عنك في كل زاوية، أفتقد دفء يديك التي كانت تمسح عني كل خوف وحزن،

مَنْ لي بعدك؟

مَنْ يضيء لي عتمة أيامي؟

مَنْ يحنو عليَّ كما كنت تفعل؟

كلُّ شيء بعدك بات باردًا، قاسيًا، بلا حياة، كنت القمر الذي يضيء ليلتي ومن دونك باتت السماء خالية، مظلمة، وكنت الأمان الذي يحميني، ومن دونك أصبحت الحياة موحشة، مليئة بالأشواك والعثرات،

رحلتَ، مَنْ لليتامى بعدكَ يا علي؟

وبقى ذلك السؤال يردد صداهُ في عقلي وقلبي وأنا أسألُ نفسي:

هل يُعقلُ أن يعيشَ المرء في وطنه غريباً ؟

نعم، يصبحُ غريباً عندما يفقد مَنْ يحبهم، لأنَّه برحيلهم يموتُ شعورُ الانتماء والأمان، وتبدو كلُّ الأماكن المألوفة غريبةً

وموحشةً وباهتةً وتحسُّ كأنَّ شيئاً ما أنتزع من جسدك،
وهنا تُصبحُ الغربةُ، غربةَ روحٍ ومشاعرٍ لا غربةَ مكان،
وها أنا أقولها بقلبٍ معتصرٍ: بعدكَ لا وطنَ لي، لا أُنسَ لي،
كيف لي أن أصف حجم الألم الذي تركه رحيلك ؟
كيف لي أن أجد الكلمات التي تحمل وجعي وحنيني إليك؟

كلما حاولت أن أستجمع قواي، تخوننني دموعي وتغلبني الذكريات، كنتَ لي السند والقوة، كنتَ لي العالم بأسره، رحلتَ دون وداع، وتركتَ وراءك فراغًا لا يُملأ، جرحًا لا يُشفى، وحزنًا لا ينتهي، كأنَّك أخذت معك النور والأمل، وتركتني أبحثُ في العتمة عن بقاياك، عن أي أثرٍ يرجعني إليك، ولو للحظة،

كنتَ وستبقى شمعةً تُضيء لي طريق الحياة،
كنتَ الحضن الذي ألوذ إليه عند خوفي، الكتف الذي أتكأ عليه عندما يثقلني العالم، كم كنتَ كريمًا، حنونًا، مليئًا بالعطاء، كم كنتَ عظيمًا ونبيلًا ؟

رحلت، وأنا الآن جالس على قارعة الطريق، مكبلاً بقيود الحزن والأسى،

غارقاً في تساؤلاتٍ لا تنتهي، أبحث عن إجابة تائهةٍ بين أركان نفسي المرهقة:

مَنْ سيذكرني بلقمةِ خبزٍ ؟

مَنْ سيُواسيني بلمسةِ عطفٍ ؟

مَنْ سيُعانقني بكلمة ودٍّ تُعيد لي شيئاً من دفء الحياة؟

لقد سرقت منا الحياة بسمتنا وبهجتنا

في زمنٍ غلبت فيه كفة الكفر والخيانة،

في زمنٍ خُذِلت فيه القيم، ومالت فيه الدنيا عن إمامٍ عابدٍ، زاهدٍ، عادلٍ، كان ميزان الحقِّ ومصدر الفضائل،

كان أماننا وعزتنا، برحيله تهاوت الأرواح وتراكمت الأحزان،

سرتُ أقودُ خطواتي الموحشة والثقيلة، وكأنَّ الأرض تأبى أن تحملني، سحبٌ سوداء تظلّلُني أينما سرت،

لم أكن وحدي في هذا الطريق، فقد رافقني عددٌ من اليتامى، وكلٌّ منا يُشارك الآخر آلامه، كانت دموعنا تترجمُ أوجاعنا، وأنيننا يُواسي صمت المكان،

وأخيراً وصلت إلى بيتي، مُثقلَ الروح، منهك الجسد، ركضت إلى حضن أمي، الحضن الوحيد الذي بقي لي في هذه الدنيا، ألقيت رأسي على صدرها، وانفجرت بالبكاء،
كأنَّ الدموع هي اللغة الوحيدة التي أملكها، كانت أمي تمسح على رأسي بحنانها المعتاد، تُحاول بثَّ الأمان في قلبي وهي تقول: أعاننا الله يا ولدي،

رفعتُ رأسي وقلتُ بصوتٍ يملؤهُ الألم والأسى:
ما من لقاء بيني وبينه يا أمي، لقد رحل وتركنا في شوقٍ دائم، في شوقٍ يمزقُ أرواحنا،
يعصفُ بقلوبنا،
آهاته حاضرةٌ في كلِّ زوايا حياتنا، تُرهقنا، تُدمينا!

احتضنتني أمي بقوة وكأنَّها تُحاول أن تردَّ إليَّ شيئاً من ثباتي

المفقود، أمسكت بيدي، وبدأت تمسح دموع الحسرة عن وجهي، تُحاول جاهدة أن تخمد نار الفقد التي تشتعل في داخلي، تُحاول أن تزيحَ عني رداء الحزن، وبلا شعور تندبُ معي وهي تقولُ:

مَنْ لليتامى بعدكَ يا أبا الحسن؟

مَنْ لهم وأنتَ الإمامُ العادلُ الرحيم؟

وهكذا جلسنا معاً، أنا وأمي، نندب رحيل أمامٍ كان وجه الحقِّ والعدالة،

كان أباً لليتيم ويداً للضعيف،

كان رحمة السماء للأرض،

كان لسانَ الحكمةِ لكلِّ العصور يُضيء ظلام الأمم،

إنَّهُ الحقُّ المبين وإمام المتقين وسنبقى نهواهُ في كلِّ حين وعن دربه لن نميل، وسيبقى ذكرهُ سراجاً يُضيء لنا الطريق الذي بات موحشاً بعده.

ذكرهُ عبادة

كانت أمي دوماً تصف لي الحياة مثل كتاب ضخم، نقرأه صفحةً تلو الأخرى نتعلم منها ما هو جيد ونتجنب منها ما هو سيئ، وعلى الرغم من أنَّنا نغوصُ في أعماق الحياة بكل تفاصيلها ومواقفها وحكاياتها لكننا دائماً نجهل ما تخبئه لنا الصفحة القادمة،

ولهذا كانت تعلمنا أمي أن نكون أقوياء ونكون على استعداد تامٍ لكلِّ ما قد يعترض طريقنا من محن أو مصاعب تسعى إلى تدمير عزيمتنا أو محو ذكرنا من صفحات الحياة،

فهي كما عهدتها متقلبة الأحوال أحياناً تمنحنا أيامها فرحاً يعانق السماء، وأحياناً أخرى تسوق إلينا آلاماً لم تكن بالحسبان، وتفرض علينا سيناريوهات لم نختَرها

لكنَّها في كل منعطف تترك أثراً في قلوبنا، وتجعلنا نبحث عن طريق للمواساة والطمأنينة في الذكريات والحنين إلى أشخاص زرعوا فينا الفرح والسعادة وصار القلب متعلقاً بحبِّهم متشوقاً

لرؤيتهم دوماً،

نحن البشر نميل بطبعنا إلى التعلق بمن يمنحون الحياة معنى مختلفاً، أولئك الذين يضيئون دروبنا بحكمتهم، ويُحيطون أرواحنا بالسكينة حتى إن غابوا ... عندما نذكرهم،

كأنَّ صخب الألم بأسره يهدأ،
كأنَّ أنفاسنا تجد طريقها إلى القلب من جديد،
كأنَّ الروح تنتعشُ وتُزهر كربيع جديد،

في تلك الليلة عصف بي هدوء عارم لكنَّ الصمت لم يكن من نصيبي فلم أستطع أن أحبس مشاعري وأحاسيسي،
فقلتُ بصوتٍ يملؤه الشوق والحزن:
سيدي حين يمرُّ ذكرك تأتي كلماتي على استحياء وأنا أحاول أن أصفك وأمنحك بعضاً مما تستحقه من المدح والثناء،

لكن كيف لي أن أجد وصفًا يليق بروحك العظيمة وقلبك النقي وعطائك الذي لا ينفد؟

كيف لي أن أصف مَنْ منح الله تعالى وجوده الحياة والأنس والهناء، كما منحنا الماء والهواء؟

تلك العناصر التي لا نستطيع الاستغناء عنها هي في حقيقتها رمزٌ لعطائك الذي لا يُقاس وكمالك الذي لا يُدرك،

سلامٌ لكَ يا من تعلَّق القلبُ بحبك وتشبّثت الروحُ بذكرك، سلامٌ ينبعُ من قلبٍ لا يهوى غيركَ، ومن لسانٍ لا يملُّ من ذكر اسمك،
كيف لا ... ذِكرُكَ عبادة وحبُّكَ إيمان؟

فلا تسعفني الكلمات إلَّا أن أقولَ لكَ:
إنَّك بحرٌ عميق لا ينفد عطاؤه ولا يجف ماؤه،
إنَّكَ بابٌ من أبواب الرحمة والسخاء، لا يُغلق أمام مَن طرقه،
ولا يخيب مَن أتى إليه متضرعاً، منكسراً، تائهاً،

وبينما أنا على هذا الحال فإذا بطفلٍ ملأ بكاؤهُ كلَّ أرجاء المكان

احتضنني بشدة وقالَ لي:
كيف ستمرُّ الأيامُ من دون أن نرى نوره ونسمعُ صوته؟

كيف تمضي حياتنا دون أن تكتحلَ بنظرةٍ من نور عينيه،
دون ان تُدثرنا كلماته قبل يديه؟

فقلتُ لهُ: بذكره ستُفتحُ لنا أبوابُ الخير،
بذكره سيمحو الله عنَّا الهموم والأحزان
بذكره سيهبُ لنا خزائن الرحمة والغفران
بذكره ستُطمئن نفوسنا وتثبت أقدامنا على الصراط المستقيم

لم يكن أمام أُمي سوى أن تُطيّبَ خواطرنا بكلماتٍ دافئةٍ فهي كعادتها تكتمُ الحزنَ لتمنحنا الأمل فقالت:

بالرغم من كلِّ عواصفِ الحياة وأخطارها، سيبقى شمساً تنيرُ لنا الطريق مهما اشتدت الظلمات وتوالت المحن،

سيبقى قمراً يبدّدُ كلَّ خوفٍ ووحشةٍ تحاولُ أن تغتالَ آخر رمق للحياة،

فهو السكينة التي تحلُّ في قلبِ كلِّ محبٍّ لهُ لو مرَّ ذكرهُ على لسانه،

كانت كلماتها بلسماً لجراحنا، نبضاً لقلوبنا، أملاً جديداً يسقي أرواحنا جرعةً من الإيمان، جرعةً من العيش بسلام وهناء،

ارتميت في أحضانها ... غفوتُ وأنا أُفكر في الغد، أن نزورَ قبرهُ الشريف، وأُعانقهُ بشغفٍ شديد، لكي ننالَ رحمةً وعطفاً سماوياً لا نهاية لهُ.

الخـــاتمـــة

عبر صفحات هذا الكتاب، حاولنا أن نسلط الضوء على لمحات مضيئة من سيرة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، الذي لم يكن مجرد قائد أو فقيه، بل كان أبًا لليتامى وسندًا للمحرومين بل أكثر من ذلك،

إذ نجد في كلِّ قصة درسًا خالدًا في الإنسانية، جسَّد فيها أسمى معاني الرحمة والعطاء دون مقابل، متبعًا نهج النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله).

لقد كانت يد الإمام (عليه السلام) تمتد إلى اليتامى قبل أن تمتد إليهم أنظار الناس، يواسي دموعهم، ويخفف عنهم بأس الحياة، لا ليقال عنه كريم أو رحيم، بل لأنَّ العدل والرحمة كانا جزءًا لا يتجزأ من روحه الطاهرة.

ونحن نطوي آخر صفحات هذا الكتاب، يبقى صدى سيرته منارةً لنا، يدعونا لأن نقتدي بنهجه، فنحمل على عاتقنا مسؤولية مساعدة الضعفاء ورعاية الأيتام، تمامًا كما فعل أمير المؤمنين (عليه السلام).

إنَّ هذه القصص ليست مجرد روايات من الماضي، بل هي دروس حيَّة تصلح لكلِّ زمان ومكان، فكم من يتيم ينتظر يدًا حانية، وكم من محتاج يترقب قلبًا يفيض عطفًا، ليكن لنا في الإمام علي (عليه السلام) أسوة حسنة، ولتكن هذه الحكايات بداية لأعمال نُحيي بها مبادئه وننشر بها نوره.

المحتـــويـــات

الاهداء ٤

المقدمة ٦

تمضي مسرعةً بلا توقف ١٠

سوف يعود قريباً ١٨

لا تتركني وحيداً ٢٦

لوددتُ أني كنتُ يتيماً ٣٤

أملٌ بطعمِ الحزن ٤٢

غُربةُ روح ٥٠

ذكرهُ عبادة ٥٨

الخاتمة ٦٤

مهما كنتَ قوياً ...

تحتاجُ إلى شيء تستندُ عليه

إلى ملجأ يأويك قبل الاندثار

إلى رحمة تستظلُ بها قبل الانكسار

من اصدارات قسم الشؤون الفكرية والثقافية